

# خطوات في الهجرة والحركة

د. عماد الدين خليل

**حقوق الطبع محفوظة**

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

د. عماد الدين خليل



خطوات في الهجرة والحركة





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## خطوات في الهجرة والحركة

- ١ -

وضع رسولنا العظيم ( صلى الله عليه وسلم ) خطواته الأولى في الدرب صوب المدينة ، وقلبه يتحقق بهذا الدعاء ( وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ) . وكان يعلم جيداً أن حركة الانسان في التاريخ لا تستقيم وتصل الى هدفها الا بأن يرفع الانسان بصره وفؤاده وعقله وسمعه وحسّه الى السماء يتلقى عنها الصدق والنصر ، صدق الحركة وانتصار قيمها.. لكنه لم ينسَ لحظة ، أن هذا التوجه الى السماء يجب أن يقترن بثبات الخطى على الارض ، وبتحمل مسؤولية البصر

والسمع والفؤاد بأمانة كاملة .. وبصياغة الحرية الانسانية بما ينسجم ، في المدى القريب والبعيد ، مع قدر الله ونواميسه وسننه . وبدون هذا التناغم بين مشيئة الله وحرية الانسان .. بين نور السماء وشفافيتها .. وبين كثافة الارض ووعورة الطريق .. بدون هذا الحوار الدائم الفعال بين الانسان وخالق الانسان .. بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هذا هذا التواصل الدائم بين الحضور والغياب .. بين عالم المشاهدة المباشرة والغيب البعيد .. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة .. ولا مصير عظيم .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل قلبه يخفق بدعاء الله .. وهو يرسم الخطط ، ويضع الضمانات ، ويهيء المواد والامكانيات والدفع الكفيلة بايصاله الى هدفه .. لم يجيء هذا الدعاء قبل التخطيط فحسب ، ولا جاء بعده فحسب ، فليس في علاقة الارادة البشرية بالمشيئة الالهية - خلال الحدث - قبلية ولا بعدية .. وإنما تسير الاثنان في انسجام رائع .. لأن هذه من تلك ، ولأن الانسان في أصغر جزئيات الحركة وفي أكبرها إنما ينفذ قدر الله وناموسه في الأرض ، في مدى الحرية التي أقيمت له . أما أن يجيء

الدعاء والتوجه قبل التخطيط فحسب ، أو بعد التنفيذ فحسب ، فهو من قبيل الثنائيات التي ترفضها مبادئ السماء أشد الرفض لأنها تفصل بين الله والانسان ، وتقسم حظ الطرفين في حركة التاريخ ، بما لا يتفق أساساً والسنن الكبرى.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم هياً الأسباب (الارادية) الكاملة لنجاح الحركة وهو ينظر الى الله .. ووضع خطواته الأولى على الدرب وهو يدعو الله .. وما لبثت الأسباب أن آتت أكلها ، والخطوات أن انتهت الى هدفها .. وظل الرسول ينظر الى الله ويدعوه .. وما أحرانا في يوم هجرته أن نتمعن في هذه التعاليم ، في زمن طغت فيه التفسير والأهواء ، وكل قال عنده ، شرقياً كان أو غربياً ، لكن المسلمين لم يقولوا - بعد - كل ما عندهم .

- ٢ -

استغرق ( هيكلم ) الهجرة زمناً طويلاً .. حمل الرسول وأصحابه معاولهم وبدأوا يحفرون الأسس من أجل أن يستقيم البناء . ان الاسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في

عالمنا من خلال دوائر ثلاث ، يتداخل بعضها في بعض ،  
 وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيداً من المساحات :  
 دائرة الانسان ، فالدولة ، فالحضارة . ولقد اجتاز الاسلام  
 في مكة دائرة الانسان ، ثم ما لبثت العوائق السياسية  
 والاجتماعية والدينية والاقتصادية أن صدته عن المضي في  
 الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة .. لأنه بلا دولة  
 ستظل دائرة الانسان ، التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار ،  
 ستظل مفتوحة على الخارج المضاد بكل أثقاله وضغوطه ،  
 وامكاناته المادية والروحية . ولن يستطيع الانسان ( الفرد )  
 أو ( الجماعة ) التي لا تحميها ( دولة ) أن تمارس مهمتها  
 حتى النهاية ، سيما إذا كانت قيمها وأخلاقها تمثل رفضاً  
 حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربة المعاشة . ولا بد اذن  
 من إيجاد الارضية الصالحة التي يتحرك عليها الانسان المسلم ،  
 قبل أن تسحقه الظروف الخارجية أو تنحرف به عن الطريق :  
 وليست هذه الارضية سوى الدائرة الثانية ، وليست هذه  
 الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين أن يقيموها وإلا  
 ضاعوا .

وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم تبدأ منذ اللحظات



التي أدرك فيها أن ( مكة ) لا تصلح لقيام الدولة ، وأن واديهما الذي تحاصره الجبال ، وكعبتها التي تعج بالأوثان ، لا يمكن أن تكون الوطن . ومن ثم راح الرسول يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً ، وتحيط كيانهم الغض بسياج من إمكانيات القرية والتنظيم والأرض !!!

— ٣ —

ولن نستطيع أن نحدد بالضبط تلك البدايات .. لكننا نعلم جميعاً أن رسولنا صلى الله عليه وسلم بدأ نشاطاً واسعاً ومشهوداً إثر خروج المسلمين من حصارهم القاسي في (شعب أبي طالب) ، ذلك الذي استغرق سنين طوالاً ، وجاء إشارة حاسمة إلى أن المشركين عامة ، والقيادة الوثنية القرشية على وجه الخصوص ، لا يمكن بحال أن تهدأ المبدأ الجديد ، الذي جاء يمثل رفضاً حاسماً لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وأنهم سيظلون يدفعون حتى النهاية الأخطار التي يمثلها الإسلام بوجه أهدافهم وتقاليدهم ومصالحهم .

والرسول عليه الصلاة والسلام - الذي علمتنا سيرته  
مدى الواقعية الايجابية التي كان يتمتع بها، والحرص على  
الطاقة الانسانية ألاّ تبدد في غير مواضعها - سرعان ما نجده  
يتحرك صوب الخروج الى مكان جديد يصلح لصياغة  
الطاقات الاسلامية في إطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار  
في المهمة بخطى أوسع، وإمكانات أعظم بكثير من إمكانات  
أفراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخل، وتضغط عليهم  
قيم الوثنية من الخارج، وبصرف طاقاتهم البناء اضطراراً  
قريش، بدلاً من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها  
المرسوم.

إن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بدأت فعلاً يوم  
خرج الى الطائف، فصد صدّاً قاسياً، لكنه لم ييأس، لأنه  
يعلم يقيناً أن الخاتمة ستكون له، فقط إذا استمر على بذل جهده  
البشري الكامل في البحث والتخطيط للهجرة التي ستعقب  
دولة.. وللدولة التي ستعقب انصاراً.. ووقف عند أسفل  
جدار لبستان في الطائف، ريشما يسريح، ونادى ربه (إن  
لم يكن بك غضب علي فلا أبالي) !! ثم واصل الطريق  
وراح يتصل دون كلل بوفود القبائل التي كانت تنهال على

مكة في مواسم الحج ، يعرض عليهم الدين الجديد ،  
ويعرض مع الدين الجديد طلباً بأن يمنحوه أرضهم ويحموه ،  
لكي يتمكن من ( الاسراع ) في أداء مهمته الصعبة قبل أن  
يجيء البين ويضطرب المصير .

إن الهجرة كان يمكن أن تكون الى الطائف ، أو الى  
ديار أية قبيلة عربية قوية الجانب عزيزة المنال ، سواء كانت  
بلادها في الشرق أم في الغرب .. لكن أياً من هذه القبائل  
( بنو كندة ، بنو عامر بن صعصعة ، بنو حنيفة ... الخ )  
لم تمد يدها مبايعة الرسول ومرحبة بهجرته الى أرضها  
وديارها .. فقد أعمت الوثنية الجاهلية قلوبهم وأبصارهم عن  
الشرف الذي كان يمكن أن يحظوا به لو قالوا للرسول :  
بايعنا .. ونصرنا !!

— ٤ —

ويمضي الرسول في بحثه عن الطريق الذي سيهاجر عليه  
وأصحابه صوب هدفهم المحتوم . وكان أن بعث الله نقرأ  
من يثرب .. ساقتهم لإرادته التي لا تغلب الى الرسول في

السنة الحادية عشرة للبعثة .. فالتقوا به عند العقبة ، المنفذ الذي لا بد من اجتيازه للقادمين من يثرب صوب أم القرى . وعرض عليهم الرسول مبادئ الاسلام ، غاية في الوضوح والسماحة والعدل والمساواة والأنسجام مع تكوين الانسان ونشاطه وأهدافه .. فما كان منهم إلا أن لبوا الطلب ، وأعلنوا إسلامهم ، ووعدوا الرسول بأنهم سيرجعون الى يثرب ويبشرون بدعوته العادلة هناك . وما لبثت السنة التالية أن جاءت الى الرسول عليه الصلاة والسلام في نفس المكان بوفد ثان من أوس يثرب وخزرجها : اثنا عشر رجلاً ، من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل .. جاءوا لايعلنوا إسلامهم هذه المرة بل ليبايعوا الرسول على الاسلام ، تمسكاً بأهدافه ، والتزاماً بقيمه وأخلاقياته . ولم يشأ الرسول أن يتسرع الخطوة التالية ويعرض عليهم طلبه القديم : أن يمنحوه أرضهم وبلدهم وأن يحموه .. انه بذلكائه العجيب وبالهدي الإلهي الذي يمهده بنوره ، كان ينتظر نتيجة مساعي أصحابه الجدد ، ويجسّ النبض ويختبر الامكانيات . إذ في المرة الاولى اكتفى بأن يعرض الاسلام ، وأن يودع الستة الذين أسلموا دون أية بيعة ، وفي المرة الثانية بايعوا

على الجانب السلمي - إذا صح التعبير - من برنامج الاسلام ، فأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير - الذي لم يشأ أن يجازف به في المرة الأولى - أرسله هذه المرة بعد أن استبانت له ملامح المستقبل ، لكي يتولى شئون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك .

ومرت أشهر وأشهر ، ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كلاً ولا فتوراً .. يتحرك بالقرآن ، ويحرك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن .. كانت آيات الله تملك في بنيتها المعجزة سحر الاقناع ، وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته اياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع مبهورة الأنفاس من حوالي مصعب في أزقة المدينة وطرقاتها ، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم .. وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، غادر مصعب يثرب ، يطير به الشوق للقاء رسوله وقائده .. وفي مكة اجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب .. وأنه عما قريب سيلتقي الرسول بوفد كبير منهم تقر له عينه ويطمئن به باله .

وعند العقبة أيضاً .. اجتمع الرسول ( عليه الصلاة

والسلام) بأعضاء الوفد الموسع الحديد .. كان يضم هذه المرة ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين .. اتفق معهم سرّاً على أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل ، حين ينام الناس وتغفل العيون .. يتسللون اليه واحداً واحداً واثنين اثنين .. وتمت البيعة الثانية .. البيعة الكبرى .. هذه المرة صريحة واضحة مكتملة ، على كل جوانب الاسلام ، سلماً كان أو قتالاً ، ومدوا اليه أيديهم مصافحين ، ومقسمين بالله الواحد الذي آمنوا به ، أنهم سيحمون الرسول وينصرونه ، وأنهم سيرفعون السلاح في وجه أية قوة في الارض ، سوداء كانت أم حمراء ، تسعى الى الفتك به وبدعوته وأصحابه وقبل أن يرجعوا اختار الرسول من بينهم اثني عشر نقيباً ، ليشفروا بأنفسهم على سير الدعوة في يثرب ، حيث استقام عود الاسلام هناك وكثر مثقفوه ، وحيث أراد الرسول بفقهه العميق لأساليب الدعوة ، أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث اليهم أحداً من غيرهم ، وأنهم غدوا أهل الاسلام وحماته وأنصاره .

خطوات محكمة ، واستخدام حصيف للامكانيات وفقه عميق لخطوات الحركة .. يرافق هذا كله هدى السهام

الذي لم يفارق خطى الرسول لحظة ، والذي ساق اليه — بما  
أوجده من ظروف صعبة في يثرب — هذه الوفود التي جاءت  
لتحمل اليه ما كان يرجوه ويعمل على تحقيقه جاهداً .



أصدر الرسول أوامره الى أصحابه بأن يبدأوا هجرتهم ،  
مخلفين ، متفرقين قدر الأمكان .. وبدأت طرقات مكة  
وبيوتها وأزقتها ونواديها تشهد يوماً بعد يوم غياباً مستمراً  
لأصحاب الرسول .. أما هو صلى الله عليه وسلم فكان  
ينتظر تأمين هجرة أصحابه .. ثم يبدأ هو ومن سيختارهم  
ببقاء معه خطواته صوب المدينة ريثما يتلقى إشارة الوحي  
لكريم بالتحرك .

وفتح القرشيون يوماً أعينهم على مكة وقد أقفرت من  
المسلمين ! ! لقد غادروها صوب المهمة التي تنتظرهم مخلفين  
راءهم أموالاً وبيوتاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ومتاعاً  
كثيراً .. إن الهدف الذي تحركوا من أجله أغلى وأثمن من  
أموال والبيوت والمتاع ، وأكثر إلحاحاً من تلبية مطالب

جسدية أو حياتية أو اجتماعية .. انهم مستعدون لأن يبذلوا  
أرواحهم ودماءهم في سبيل هذا الهدف الذي ينتظرهم  
هناك في نهاية الهجرة .. فكيف لا يتخلون عن الأموال  
والنساء والمتاع ؟!

وها هي رءوس قريش تجتمع في ( دار الندوة ) قبل  
أن تفلت الفرصة من أيديهم ولات حين مندم .. وطرحت  
آراء باعتقال الرسول عليه السلام وتكبيله بالأغلال ، او  
بنفيه بعيداً في منقطع الصحراء .. ولكن رأياً بقتله  
وتفريق دمه بين القبائل هو الذي حاز الموافقة والاعجاب.  
انهم ان استطاعوا قتل الرسول عليه السلام فقد استطاعوا  
قتل الدعوة التي لم تستكمل أسبابها بعد .. وان طالبتهم بنو  
هاشم بدمه فسيشيرون الى العشائر جميعاً والى سيوف أبنائها  
حيث تقطر دماء الرسول !!

— ٦ —

ويجيء أمر الله بحمله الوحي الى الرسول : تحرك يا محمد .  
كانت تلك هي الإشارة التي ينتظرها الرسول بفارغ الصبر .



لكن شوقه للهجرة ، وتحرقه لأن يضع خطواته على الارض  
الموعودة حيث أصحابه القدامى والجدد ينتظرونه على أحر  
من الخمر .. ورغم يتمينه الكامل بأن الله معه يرعاه ويسدد  
خطاه .. فانه لم يتعجل الحركة ، ولم يرتجل الخطوات .. كان  
عليه أن يخطط للهجرة مستخدماً كل ما وهب من إمكانيات  
الفكر والبصيرة والارادة .. لأنه بهذا وحده يستحق نصر  
الله ووعدته .. والا فلا شيء منحنا الله بصائر وعقولا  
وحرية وقدرة على التحرك والتخطيط ؟! وما أبرع البرنامج  
الذي رسمه رسولنا عليه السلام من أجل أن يصل الى الهدف  
بأكبر قدر ممكن من الضمانات .

انتقى من بين أصحابه أول اثنين أسلما في تاريخ الدعوة :  
أبا بكر وعلياً ( رضي الله عنهما ) ، واستبقاهما لكي يؤديا  
الأدوار التي رسمت لهما في حركة الهجرة . أما علي فلنكي  
يؤدي مهمة مزدوجة .. الايهام ، ورد الامانات الى أهلها ..  
ورب قائل يقول : ان وراء الهجرة هدف أكبر بكثير من  
التمسك بجزئيات أخلاقية قد يسمح الظرف الخطير بتجاوزها  
لكن منطق رسول الاسلام شيء آخر .. ما الفرق بين  
الاسلام وبين المبادئ الاخرى إذا كان هو متأسياً بها في

تخليه عن أخلاقياته في ساعات المحنة والخطر ؟ وماذا سيقول  
المشركون لو غادر الأمين مكة دون أن يرد إليهم أماناتهم ..  
ما أسرع ما يمكن أن يتهموه حيث يأكلهم الغيظ : الأمين  
تحول الى سارق ، وضاعت الأمانة .. وحاشاه !!

أما أبو بكر فقد اختير ليكون رفيق النبي وأخاه في  
هجرته .. فما أعظم حظك يا أبا بكر .. تسلل اليه الرسول  
في ضحى أحد الأيام ، على غير عادته في التردد على داره  
صباحاً أو مساء .. خطوة من خطوات الايهام والتدبير بأولئك  
الذين يريدون أن يمحروا به .. ودهش أهل الدار لمجيء  
الرسول في وقت غير ما اعتادوه ، لكن الرسول عليه السلام  
لا يلتفت الى دهشتهم ، بل يتجه الى رفيقه فوراً ويطلب  
منه أن يخرج ابنتيه من المكان .. فيطمئن أبو بكر الرسول  
بأنه ليس ثمة ما يخشى .. ويتكلم الرسول ( إن الله أذن لي  
في الخروج والهجرة ) ، فيرد عليه الصديق وهو يهتز فرحاً  
( الصحبة يا رسول الله ) ؟ ! فيجيبه الرسول : ( الصحبة ) .  
وتقول عائشة : ( فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم  
أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي  
يومئذ ) !!

ومعاً استكملاً الحطة ووضعاً الأسباب ، وتركاً — من  
 — مصيرهما ومصير الدعوة لله .. صانع المصائر ومقدر  
 مدار . التسلل من شباك خلفي على غفلة من قريش ..  
 جبه جنوباً على طريق اليمن واللجوء إلى إحدى مغارات  
 ثور هناك .. التوقف عن السير ثلاثة أيام ريثما تخف  
 زلات القرشيين المستميتة في البحث عن الرسول .  
 الانطلاق — بعد ذلك — صوب المدينة في طريق وعر  
 مطروق ، يعينهما في ذلك دليل ماهر من المشركين  
 سهم !! اختير اعتماداً على كفاءته العالية كدليل ، وعلى  
 شته التي لا بد وأن يكون الرسول قد سبر أغوارها . أما  
 تحركات القرشيين ومطارداتهم فسيأتيهما بها عبد الله بن  
 بكر ، وأما توفير الطعام فيقوم به راعي أبي بكر ،  
 عبد الله بن أرقط ، الذي كلف باراحة الاغنام عند الغار  
 ماء كل يوم ، كي يحتلبها المهاجران ويشربا من لبنها ..  
 ما كلفت أسماء بتوفير الطعام في المرحلة التالية من الهجرة .  
 ما آثار الأقدام التي سيخلفها عبد الله بن أبي بكر لدى  
 ما به واياه والتي تقود الى الغار مباشرة فإن هناك راعي أبي

بكر ، ابن أرقط ، يعود في الأمسيات في أعقاب عبد الله  
لكي تطمس حوافر الأغنام على خطوات الرجال !!

خطة محكمة ورائعة .. ولا يبقى إلا أن ينزل نصر الله  
على قادة استكملوا كل الأسباب التي منحهم الله إياها .  
لأنه التوافق المنغم الرائع ، الذي تحدثنا عنه ، بين مشيئة الله  
وإرادة الانسان ، وبين هدى الله وخطوات عباده الأبرار .

— ٨ —

وفي تجربة الهجرة ينزل نصر الله ، فعلاً مباشراً مرثياً  
ثلاث مرات .. فيما عدا خط الهجرة والتاريخ كله حيث  
إرادة الله التي لا راد لها .. لكننا هنا نريد أن نشير إلى  
أفعال الله المباشرة في هجرة رسوله عليه الصلاة والسلام  
مرة لدى مغادرته داره ، في أعقاب ليل مريع أحاط أبنا  
القبائل المسلحون طيلة ساعاته بدار الرسول ينتظرون اللحظة  
التي سيطيحون فيها برأسه ويفرقون دمه بين القبائل .. إلا  
أن هذه اللحظة السوداء لم تجيء ولن تجيء .. لقد فتح الرسول  
الباب على نصراعيه وراح يقرأ آيات من سورة يس :

يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط  
مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم  
فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .  
فأجعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون .  
وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم  
لا يبصرون .. « !! وعبر هذا السد الذي أغشى به الله  
بصار المشركين انطلق الرسول ورفيقه إلى الهدف على  
الصراط المستقيم .

ومرة أخرى عند الغار .. وما أخطر ساعات الغار بأيامها  
ولياليها .. لقد رأى أبو بكر بأم عينيه نعال المشركين  
لطاردين الحانقين تحقق عند أسفل الغار .. فارتعد فرقاً ..  
ليس على نفسه ، فما أهون النفس على أصحاب رسول الله  
وعلى رفيقه وصديقه بالذات .. لكن على الرسول نفسه  
وعلى ما يمثله الرسول . فيهمس في أذنه : ( لو نظر أحدهم  
تحت قدمه لرآنا ) !! ويحيى رد الرسول منبثقاً عن تلك  
اللحظات العليا حيث يقف الله مع عباده يدفع عنهم ..  
( يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! ) .. وتطيش  
أبواب المشركين ، وعبثاً يرهق مقتفو الآثار أنفسهم .. ان

الرسول ورفيقه في حماية الله .. وكفى .. ودون الوصول إليها المستحيل .. ولو اجتمعت جنود الارض كلها عند الغار تطالب برأسه .. وما أروع كلمات الله وهو يعلن هذه الحماية التي لا حماية بعدها : ( الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ) ؟ !

ومرة ثالثة في الطريق الى يثرب .. ان ( سراقه بن مالك ) الذي خلبت لبه الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حياً أو ميتاً ، يلهث الآن ركضاً وراءها ، بفرسه المنطلقة ورمحه المصوب الى هدفه .. ان سراقه كألوف من الأعراب ، بل كألوف من الناس .. نلتقي بهم في كل مكان وزمان .. أولئك الذين ما أن تبرق أمام أعينهم قطع النقود ، وتطرق أسماعهم أصوات الذهب والفضة وهي ترن ، حتى يصبحوا على استعداد لأن يبيعوا مبادئهم وضمايرهم وشرفهم وعرضهم ، من أجل أن يصلوا الى قطع النقود ، ويضعوا أيديهم على أكوام الذهب والفضة .. انهم

موجودون في كل مكان وزمان .. ولذا كانت خير وسيلة للإتيان بالزعماء الهاربين من وجه الظلم والطغيان هو أن يعلن عن جائزة قدرها (٠٠٠٠) لمن يأتي بالهارب حياً أو ميتاً .. لكن إرادة الله لن تدع الرغائب السافلة تطفئ على الأهداف العليا .. ان هذا الطغيان يحدث - يوم يحدث - عندما يتغلب أصحاب الأهداف الكبيرة عن حشد طاقاتهم والتخطيط العاقل لخطواتهم والتلقي الكامل عن خالقهم حينذاك تغدو كل آمالهم وتمنياتهم كالزبد الذي يذهب جلاء .. تكنسه الأقدار وتعجنه في تيارات الماء عجنأ .. أما والرسول قد استكمل الأسباب ، فإن سراقه تعثر به فرسه وتمرغه في التراب ، كلما اقترب من هدفه .. مرة ومرتين .. فيطلب الأمان .. انه الآن لا يطارد رجلين مرهقين قد عصرهما الجوع ، وأرهقهما السفر الطويل ، والتشرد .. لكنه يقف بازاء جند الله التي لا ترى ، فأنى له ما يريد ؟ انه بعد دقائق يلوي زمام فرسه ويقفل عائداً ، وكلما رأى أحداً من اللاهثين كالكلاب الجائعة رده قائلاً : كفيت هذا الوجه . وذلك ما طلبه منه الرسول !!

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، وصل الرسول وصاحبه مشارف يثرب حيث جرى لهما استقبال حافل من قبل أولئك الذين انتظروا رسولهم طويلاً .. وها هي تكبيراتهم تشق أجواز الفضاء .. لأنهم سيبدأون معه ، وبه ، ومن أجله وأجل دعوته ، عهداً جديداً كتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء ... الدائرة الثانية من دوائر الدعوة ، دائرة الدولة التي ستحمي المسلمين أفراداً وجماعات ، وستمنح الإسلام خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر .. فلا عجب أن يخرج الأنصار بأسلحتهم يستقبلون الرسول ، فهامهم أولاً الجنود الذين سينضمون إلى إخوانهم المهاجرين ، وسيبنون معاً ، بقوة العقيدة والسلاح ، الدولة التي ستصنع حضاراً تشرف الإنسان ، في كل مكان وتباركه ، وتضعه موضع الحق الذي أراده الله عندما استخلفه ومنحه السيادة على العالمين .

إن اليوم الثاني عشر من ربيع الأول هو نهاية حركة



حاسمة من أجل إقامة ( الدولة ) لكنه في الوقت نفسه بدء  
حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز الدولة وإقامة ( الحضارة )  
مما كما كانت بعثة الرسول - في البدء - حركة صوب  
كوين ( الانسان ) ، صانع الدول والحضارات !!

- ١٠ -

ولن نغادر حركة الهجرة قبل أن نستمد منها تعاليم  
أخرى قد تعيننا على فهم وتفسير تاريخ البشرية عامة وتاريخنا  
الاسلامي على وجه الخصوص .. إن أي حدث تاريخي -  
كما يتضح من خطوط الهجرة - إنما يجيء تعبيراً عن إرادة  
الله التي تصوغه من خلال إرادة الإنسان .. أو مباشرة عن  
طريق اتصالها بالزمن والتراب . ولا تمكن دراسة تاريخ  
الكون ، وتاريخ البشرية وتاريخ الأحياء إلا من هذا المنطلق .  
إن الفعل الإلهي يتخذ أشكالاً ثلاثة لخلق الحدث وصياغته :  
أولها مباشرة الفعل التاريخي ( كما حدث في تجربة الهجرة ،  
في تلك اللحظات التي كان الرسول يجابه فيها موقفاً يتعدى  
حدود قدراته وإرادته وتخطيطه ) والشكل الثاني : يتم عن  
طريق ما يمكن تسميته بالسببية التاريخية ، أي تهيئة الأسباب

لتوجيه الأحداث هذه الوجهة أو تلك .. وقد تكون  
الاسباب مادية طبيعية أو حيوية إنسانية ، وقد تبي  
شكل مجموعة من السنن التي تنظم حركة الكون والحي  
والانسان ، والتي تفرض حتمية قانونية على بعض أحو  
التاريخ ( وقد رأينا في تجربة الهجرة كيف هيا الله سب  
الاسباب لأن تكون يثرب الأرضية التي تقوم عليها د  
الاسلام ، ولأن يكون أبنائها الطاقات البشرية التي تن  
هذه الدولة وتحميها ريثما يتم البناء ) . أما الشكل الثالث  
للفعل الإلهي فيجيء عن طريق الحرية الإنسانية ذاتها ، و  
هي في مداها البعيد جزء من إرادة الله في خلق الافع  
والأحداث . لقد منح الله الحرية للإنسان ابتداءً لكي يص  
تاريخه الفردي والجماعي ، ولكي يشكل مصيره فر  
وجماعة ، اعتماداً على ما ركب في وجوده من قوى العف  
والإرادة والانفعال والحس والحركة ( وهذا يبدو في تجر  
الهجرة من خلال تلك الخطط الاجتهادية التي وضعه  
الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي قدمت لحركته صو  
إقامة الدولة ، ضمانات حاسمة في طريق النصر ) . والان  
بدوره ، عندما يستخدم حريته لصناعة الحدث وتوج

صير ، إنما يعتمد على مقدمات لا يمكنه بحال الاستغناء عنها : الزمن ، التراب ، ثم التعاليم والقيم والاعراف والتقاليد ، وضعية كانت أو دينية .. وها هو الرسول في جبرته ينسّق خطواته صوب هدفه ، مستخدماً هذه العناصر ثلاث ، متخذاً منها عجيبة في صياغة الحركة وضمنان لأهداف .

- ١١ -

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي ، وضعية كانت أو دينية ، قدمت معطياتها متخفية الاجابة عن هذا السؤال لهم : ما هي العلاقة بين الله سبحانه وبين الطبيعة ، بما فيها لقوى المادية ، والانسان ، بما أنه روح ومادة ، في صنع التاريخ وإقامة الحضارات ؟ وهل من المحتم أن تتكبد أحداث التاريخ على عامل واحد من هذه العوامل الثلاث ، يلغى العاملان الآخران ، أو على الأقل يغدوان ظلالاً باهتة لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هذه الجدران التي قيمت بين الله والطبيعة والانسان ؟

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الاجابة عن هذا السؤال تاركة في طريقها ثغرة عميقة ، ومنغلقة في بحثها عن الفرضية الحاطئة التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد وتلغي العوامل الأخرى الغاء .. ومن ثم برز التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ وتطور ليعبر عن نفسه بالتفسير اللاهوتي الذي سا تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوروبية . كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ . والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدتها بالمادية التاريخية التي يصفونها (بالعلمية)

واقد ادرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين ، وعلى رأسهم اشبنجلر ، وتوينبي ، وكيسرلنج ، والناقد كوار ولسون ، أبعاد هذا الخطأ ، فعادوا خطوة متمعنة الى الوراء لكي يجيبوا على السؤال الأول ، ويجتازوا - من ثم - طريقة مرصوفاً لا ثغرات فيه . والحق أن التفسير الحضاري ، تقدي خطوات في هذا المجال ، خطوات تتسم - الى حد ما - بالاتزان والتعقل والموضوعية والشمول الذي يستند الى نظر كلية وإدراك عميق لمقومات الحدث التاريخي . ولكن الموقع الذي رصد منه هؤلاء التاريخ وفلسفوا حركته ، تقف أمام كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة

الحكم الشامل الصحيح . كما أن التجربة النفسية التي  
سواها أحداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر الذاتية  
دوجة والتأثيرات العلمانية . لذا فإنهم لم يقدرُوا على إعادة  
لتام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاث ، وأبقوا بعض  
مدران المزيفة ، مرئية وغير مرئية ، بين الحضور والغياب ،  
لله والانسان ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة.

صحيح أنهم أعلنوا أن الحدث التاريخي لا يمكن أن  
ينع قوة واحدة ، لأن أية ( حركة ) تاريخية إنما هي نتاج  
علاقة خلاق بين الله والانسان والطبيعة — بما فيها الزمن —  
ن إغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية  
ركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر  
هوية المحدودة . والنظرة الذاتية القاصرة ، واضطراب  
جربة النفسية في عملية الاستشراق والاستقراء التاريخي ،  
مر الذي أدى الى تأرجح مواقع رؤيائهم ، والوقوع بالتالي  
كثير من الأخطاء ، ليس هذا بطبيعة الحال مجال سردها  
عليها .

ثم ان هجرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - تعد  
 كيف يرتبط تاريخ الدعوات بالحركة .. حركة الانس  
 الفرد ، وحركة الجماعة . كما تعلمنا أنه ليس من الم  
 أبداً أن تكون ( الحركة ) صدوراً عن صراع النقيض  
 كما أكد هيغل وماركس وغيرهما ، بل أنها في كثير  
 الأحيان تجيء بمثابة استجابة داخلية ، مقرونة بعمل خارجي  
 لنداء من فوق .. إن هذا الحوار بين القيم العليا والوجد  
 السفلي ، هو الذي يحرك - في أحيان كثيرة - أحد  
 التاريخ على خط صاعد . إن المثل الأعلى كان دائماً بم  
 هدف يتحرك اليه الذين يتخبطون تحت ، أو الذين يتقلب  
 في الظلمات ، أو الذين يتعذبون بشتى صنوف العذاب  
 وتمنعهم القوى العقائدية المضادة من تحقيق أهدافهم . (واله  
 تمثل حركة هذه الجماعة الأخيرة) .. ان بحث الضائ  
 والحائرين والمعذبين والمأسورين عن النجاة ، عن م  
 أعلى ، عن هدف يطمحون للوصول اليه .. هذا البحث  
 الجاد كان في معظم الأحيان المحرك الذي يسوق الأفراد  
 والجماعات الى مصائرهم ، ويصنع تاريخهم .. واذا

الخطأ والتزييف أن نصدر حكماً على كل حركات  
ريخ بأنها جاءت نتيجة لصراع النقيضين ..

إن ( الصراع ) نفسه يتخذ أشكالاً عديدة لا تقتصر  
على تقابل الضدين وتغلب أحدهما على الآخر .. إنه يبدو -  
يائناً - إرادة ذاتية تسعى الى التوحد والائتمان الذاتي .  
وجدان الانسان ومع المحيط الخارجي ، ويبدو أحياناً  
كمرى رغبة فعالة في تحقيق تفاهم متبادل وسلم عام بين  
انسان والوجود .. وهو يبدو أحياناً ثالثة عملية استقطاب  
قوى والطاقات ، وتنظيم لها ، وحماية لمقدراتها من أجل  
تصعب جميعاً في مجرى المبادئ الجديدة والدعوات  
كبرى ( كما حدث في تجربة الهجرة ) . وكل هذه  
أشكال من الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد  
أولة للالتئام والتوحد والاستقطاب والتجمع .. وبعد  
دا - وخلالها أيضاً - لا بد للحركات أن تجتاز صراعاً بين  
نقائض ، لكنها نقائض من مستويات شتى : نفسية وفكرية  
عقيدية ووجدانية وعرفية واجتماعية وسياسية واقتصادية  
... بمعنى آخر أنها نقائض بشرية ، فيها كل ما في  
انسان من مكونات روحية ونفسية ومادية .. ومن التزييف

لتاريخ الحركات أن نقصر النقائص على جانب فحسب  
هو الجانب العقلي ( كما عند هيغل ) أو المادي الاقتصاد  
( كما عند ماركس ) ، لأن هذين الجانبين لا يغطيان  
مساحة الفاعلية الانسانية التي تنبثق عن رغبة إرادية شا  
في مصارعة كل ما يتعارض مع إرادتها ووجودها وأهدافها  
روحية كانت أو مادية .

— ١٣ —

ومهما قلنا .. ومهما كتبنا .. فسيظل في هجرتك  
رسول الله ( بعداً ) لن نبلغه أبداً .. لأن أحداً منا لم يك  
معك .. رفيقاً وصديقاً .. ليرى بأم عينيه بصرك وهو يم  
الى الدولة التي ستقوم عما قريب .. في نهاية خطواتك صو  
المدينة .. ولأن أحداً منا لم يكن الى جوارك ، مهاج  
وغريباً .. ليسمع قلبك الكبير وهو ينبض بآمال وأمان  
يحملها قلب لإنسان ، وينوء بها كل رجد إلا وجدك  
رسول الله ، ذلك الذي ومع كل أمنية وكل أمل ، وخف  
بانتظار الزمان الذي ستطأ فيه سنابك خيول أصحابك وأتباع  
ديار المشارق والمغارب ، ممرغة في الوحل والتراب



أنوف التي استعلت زيفاً وخديعة وكذباً على قيم الله وتوحيده  
طلق !!

إن بعداً ( غيبياً - روحياً ) يكمن دائماً في كل خطوة  
طوتها يا رسول الله . لأنك هيات كل الممكنات الارادية ،  
تركت الباقي على الله ، وهو ما لم ندرك منه الا صور المشيئة  
لهية المباشرة تنزل نصراً حاسماً ، وحماية دائمة ، وايصالاً  
لأهداف البعيدة .. لكن حسك الخفي ، وصلتك  
روحية بالله ، ومناجاتك له ، وحوارك العميق معه في  
اعاءات الرعب والتغرب والمطاردة ، ستظل ابعادها خافية  
لينا : وانت القائل : ( لو تعلمون ما أعلم لضحكتم  
بلاً ولبيكنم كثيراً ) !!

فغفوا ، رسول الله ، إن قصرنا أو أخطأنا ، ونحن  
حدث عنك في يوم هجرتك .. حديث المحبين الذين  
ناصرهم القيود من كل مكان ، وتسعى الى سحق مطامعهم  
لمات بعضها فوق بعض ، فيلجأون اليك ، مؤملين أن  
تنحهم المزيد من التعاليم .. كسراً ثورياً للقيد ، واستعلاءً

روحياً على الظلمات ، وحركة ايجابية صوب المصير الفرد  
المتفرد .

وما أخرى ( الهجرة ) أن تكون هذا الدرس ..

وألف سلام على ( المهاجر ) ..

معلمنا العظيم !!

عماد الدين خليل



مطابع المختار الاسلامی